

القروض والأسرة

من متعة اليوم إلى عبء الغد

زادهم سادات
الجهل والباطل،
يرجى نشر ما تقرأ
من علم وحق، ولا
تصمت صوتك في
الحق

د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان



مشهد....

... في زاوية تغشاها ظلمة التفكير لا ظلمة المكان، يمسك سعيد بكشف الحساب البنكي الجديد بارتعاش، تتلاشى ابتسامته ببطء مع كل سطر يقرؤه، فالراتب الذي استلمه للتو قد تبخر قبل وصوله ليديه؛ أقساط السيارة الفارهة، والهاتف الذكي الحديث، وأثاث غرفة المعيشة الفخم، وبطاقة الائتمان المثقلة بمشتريات العطلة الأخيرة.... نظر إلى زوجته سارة وهي تحاول إسكات الطفل الباكي، وإلى ابنتهما التي تطلب حذاءً كصديقاتها، تنهد بعمق وهو يتذكر كلمات والده: **"القروض تشتري لك أحلام اليوم بثمن راحة الغد"**..

أدرك في تلك اللحظة أن منزله الأنيق أصبح سجنًا ذهبيًا، وأن سعادة أسرته الحقيقية لا تكمن في المظاهر التي أثقل كاهله من أجلها، بل في الاستقرار والأمان الذي ضحى به على مذبح الرغبات الاستهلاكية المتزايدة.

فلنسدل الستار على هذا المشهد الصغير المتكرر في أغلب الأسر، ولنفتح ستاراً أكبر لعصر قد يحق لنا وصفه بعصر الاستهلاك المتزايد والتسويق المكثف، إذ قد أصبحت القروض الاستهلاكية جزءاً لا يتجزأ من حياة الكثير من الأسر، وعلى الرغم من أن هذه القروض قد توفر حلولاً سريعة لتلبية الاحتياجات والرغبات الفورية، إلا أنها تشكل خطراً متزايداً على الاستقرار المالي والنفسي للأسر، وتفرض بوجودها سؤالاً هاماً:

كيف تحولت أداة مالية كان من المفترض أن تسهل الحياة إلى فخ يهدد كيان الأسرة بأكملها؟

والجواب يبدأ من جهة، من انتشار ثقافة تبنتها المجتمعات، وهي ثقافة **"اشتر الآن وادفع لاحقاً"** التي تشجع على نشر الثقافة الاستهلاكية السائدة للإشباع الفوري للرغبات، إذ تروج الإعلانات لفكرة أن السعادة تكمن في امتلاك المزيد من السلع، وتتسبب للأسف بمزيد من التهديدات، ومن جهة أخرى فهناك القروض المرتبطة بمصاريف الزواج والبدخ غير الطبيعي في مراسم الزفاف مما يهدد كيان استمرارية الزواج، حيث تعج كثير من السجون بكثير من هؤلاء الشباب لعجزهم عن تسديد الديون.

وهذا ما غاب عن أذهان أغلب الأسر التي وقعت في فخ القروض، فقد غيّبت العقول عن التفكير لأبعد من لحظة الاستمتاع بالمشتريات، وساهمت العديد من العوامل في تسهيل هذه الخطوات وتسريعها، فكانت التكنولوجيا الحديثة حاضرة بقوة لتسهيل عملية الاقتراض بنقرة زر عبر التطبيقات الذكية، متجاوزة بذلك البيروقراطية البطيئة بإجراءاتها، التي لو كانت موجودة أمام القروض لما استسهل الأفراد طلبها.

فضلاً عن سعي البنوك والمؤسسات المالية لتوسيع باب التنافس فيما بينها من خلال تقديم تسهيلات ائتمانية متنوعة، ونشر حملات ترويجية مغرية تخفي في طياتها شروطاً وأحكاماً معقدة، فبين معدلات الفائدة المتغيرة، والرسوم الخفية، وغرامات التأخير، هناك أعباء ترزح على المقترضين، خاصة أولئك الذين لا يملكون المعرفة المالية الكافية.

وهنا تبدأ المشكلة، فانعدام المعرفة المالية، والأحكام والشروط المعقدة، وتراكم الديون، وتدافع الأقساط الشهرية، كلّها تشكل عبئاً ثقيلاً على ميزانية الأسرة، وعندما تستهلك مدفوعات الديون نسبة كبيرة من الدخل الشهري، تجد الأسرة نفسها مضطرة للاقتراض مجدداً لتغطية النفقات الأساسية، مما يخلق دوامة من الديون يصعب الخروج منها، وفي حالات كثيرة، تلجأ الأسر المثقلة بالديون إلى مقرضي المال غير الرسميين أو إلى قروض ذات فوائد مرتفعة، مما يفاقم المشكلة ويزيد من حدة الضائقة المالية.

وهيئات أن تقتصر تداعيات الديون على الجانب المالي هيئات، بل تمتد لتشمل الضغط النفسي المستمر فنجد الأسر تعيش في قلق دائم بشأن كيفية سداد الديون، مما يؤثر سلباً على صحتهم النفسية، ويسود التوتر والخلافات الزوجية التي قد تؤدي إلى الطلاق، ويظهر جو من انعدام الاستقرار، فقد تضطر الأسرة للانتقال من مسكنها أو تغيير نمط حياتها بشكل جذري للتكيف مع الوضع المالي المتدهور، وينعكس التأثير السلبي على الأطفال فيتأثرون بالضغط التي يعاني منها الوالدان، وقد يحرمون من فرص تعليمية أو ترفيهية نتيجة نقص الموارد المالية.

ولا يقتصر الأمر على ما سبق، إذ تستمر آثار الديون حتى بعد سدادها، فيمكن أن تؤثر سلباً على التصنيف الائتماني للأفراد، مما يحد من قدرتهم في الحصول على قروض مستقبلية بشروط مناسبة، وتستنزف مدخرات التقاعد والطوارئ، مما يعرض مستقبل الأسرة للخطر، فتقع في دوامة من الفقر المتوارث بين الأجيال إذا لم يتم كسرها.

هذا وقد حذر الإسلام من مخاطر الديون المثقلة ووضع منهجاً متكاملًا للتعامل مع المال، مما من شأنه أن يحقق التوازن بين حاجات الفرد واستقرار الأسرة، فالإسلام بتحريمه للربا وتشجيعه على التوسط في الإنفاق، سعى لتأسيس حياة أسرية مستقرة بعيدة عن دوامة القروض الاستهلاكية، فالقناعة كنز لا يفنى، والبركة لا ترتبط بكثرة المال، إنما بحسن استخدامه، وقد أرشدنا الله تعالى إلى الاعتدال في قوله: **"وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا"** (الفرقان: 67)، وهناك آيات قرآنية وأحاديث نبوية عديدة تتحدث عن عدم التباهي والتفاخر بالزواج أو الإنفاق، وتحذر من الإسراف والتبذير، ومنها قوله تعالى: **"وَلَا تَبْذُرُوا تَبْذِيرًا"** (الإسراء: 26)، وفي موضع آخر قوله تعالى: **"وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ"** (الأنعام: 141)، ففي هذه الآيات أمر بعدم الإسراف والتبذير وذلك يشمل الإنفاق على الزواج والمناسبات بشكل عام، فهذه النصوص تدعو إلى الاعتدال والبعد عن التفاخر والتبذير في الإنفاق، بما في ذلك نفقات الزواج والمناسبات، فالالاقتصاد الأسري المتوازن ليس ترفاً فكرياً، بل ضرورة شرعية لحماية الأسرة المسلمة وضمان استقرارها في زمن تتصاعد فيه ثقافة الاستهلاك والمظاهر.

لذلك فنحن بحاجة لتحقيق مقاربات للخروج من دوامة الديون، وقد يتأتى ذلك من خلال :

- **زيادة الوعي المالي لدى أفراد الأسرة** وتطوير مهارات التخطيط المالي، بالعمل على وضع ميزانية واقعية والالتزام بها، وتحديد أولويات الإنفاق والتميز بين الاحتياجات والرغبات، وبناء صندوق للطوارئ لتجنب الاقتراض عند مواجهة نفقات غير متوقعة.
- **تطبيق إستراتيجيات فعّالة لتسديد الديون**، ومنها طريقة كرة الثلج التي تقوم على أساس البدء بتسديد الديون ذات المبالغ الصغيرة أولاً لتحقيق إنجازات سريعة وتحفيز الاستمرار على السداد، أو طريقة الشلال التي تقوم على مبدأ البدء بتسديد الديون ذات الفوائد الأعلى أولاً لتوفير المزيد من المال على المدى الطويل، أو توحيد الديون من خلال دمج عدة ديون في قرض واحد بفائدة أقل لتبسيط عملية السداد وتقليل الضغط المالي.

- **قيام الحكومات ومؤسسات التنشئة المجتمعية بأدوارها التوعوية**، الوقائية، والعلاجية حول هذه الظاهرة من خلال تعزيز التثقيف المالي في المدارس والجامعات، وسنّ قوانين لحماية المستهلكين من الممارسات المالية غير العادلة، وتوفير استشارات مالية مجانية للأسر المتعثرة، وتنظيم قطاع الإقراض الاستهلاكي بشكل أكثر صرامة.
- **تشجيع الدول لإنشاء صناديق لدعم الزواج**، وتشجيع الشباب على مبادرة الزواج الجماعي للتقليل من المصاريف، وهناك العديد من الدول التي سعت لمعالجة مشاكل القروض الأسرية وتكاليف الزواج، ونجحت في تطبيق إستراتيجيات فعّالة للتعامل مع القروض الأسرية وتخفيف أعباء الزواج، ومنها:
 - ✓ **تجربة سنغافورة**: من خلال تنفيذ نظام إلزامي يساعد المواطنين على الادّخار لتمويل السكن والتقاعد والرعاية الصحية، وتنفيذ برنامج الزواج وبدء الأسرة، الذي يقدم منحاً مالية للأزواج الجدد لشراء مسكن، وتقديم خطط الإسكان المدعومة التي تعمل على توفير شقق بأسعار مخفضة للأزواج الجدد مع قروض ميسرة، وتطبيق برنامج التثقيف المالي بشكل إلزامي للمقبلين على الزواج لتوعيتهم حول إدارة الميزانية والتخطيط المالي.
 - ✓ **تجربة اليابان**: التي سعت لتقديم قروض الزواج دون فوائد للشباب المقبلين على الزواج، وتقديم منح للأطفال بشكل شهري، وعملت على تخفيض الضريبة للأزواج حديثي الزواج، وقدمت برامج تمويل خاصة لمساعدة الشباب على شراء منازلهم الأولى.
 - ✓ **تجربة ألمانيا**: إذ قامت بتوفير منح حكومية للأسر التي لديها أطفال لشراء أو بناء منزل، وقدمت قروض زواج منخفضة الفائدة، وإعانات للأطفال بشكل شهري، ونفذت برامج الإسكان الاجتماعي بأسعار معقولة للأسر ذات الدخل المنخفض.
 - ✓ **تجربة ماليزيا**: عملت على تطبيق صندوق الزكاة لتمويل الزواج من خلال تقديم مساعدات مالية للشباب المقبلين على الزواج من ذوي الدخل المحدود، وتنفيذ برنامج للزواج الجماعي من خلال تنظيم حفلات زفاف جماعية بتكاليف مخفضة بدعم حكومي، وتطبيق برنامج للادّخار طويل الأجل يمكن استخدامه لتمويل الزواج، إلى جانب تنفيذ عدد من مشاريع الإسكان المدعومة للأزواج الجدد.

✓ **تجربة الإمارات العربية المتحدة:** من خلال تنفيذها لصندوق الزواج وتقديم منح مالية للمقبلين على الزواج، وتطبيق برنامج الإسكان الوطني الذي يوفر مساكن ميسرة أو منحة للبناء للمواطنين، وتقديم قروض إسكان دون فوائد للمواطنين الإماراتيين، إلى جانب دعم حفلات الزواج الجماعية من خلال تنظيم وتمويل الحفلات لتقليل التكاليف.

✓ **تجربة كوريا الجنوبية:** قامت بتوفير قروض بفوائد منخفضة للأزواج الجدد لتغطية تكاليف الزواج، وتقديم حوافز ضريبية للمتزوجين الجدد، وتنفيذ برامج إسكان مدعومة خصيصاً للأزواج الشباب.

إنّ مثل هذه التجارب وغيرها الكثير تعكس نهجاً شاملاً يجمع بين المساعدات المالية المباشرة، والقروض الميسرة، والدعم السكني، والتثقيف المالي، مما يساهم في تخفيف الأعباء المالية للزواج وتأسيس الأسرة.

وبعد،

فإنّ الديون الاستهلاكية تمثّل دواءً خطيرة تهدّد استقرار الأسرة على المستويين المالي والاجتماعي، إلّا أنّه يمكن التغلّب على هذا التحديّ من خلال زيادة الوعي المالي، واتّباع إستراتيجيّات فعّالة لإدارة الديون، والتحوّل نحو أنماط استهلاك أكثر استدامة، وذلك من منطلق كون بناء مستقبل مالي آمن للأسرة ليس مسؤولية فردية فحسب، بل هو مسؤولية مجتمعية تتطلّب تضافر جهود جميع الأطراف المعنية، فبدلاً من السعي وراء الإشباع الفوري للرغبات من خلال الاقتراض، علينا أن نعزز ثقافة التخطيط المالي والادّخار والاستهلاك المسؤول.

ففي حقيقة الأمر، فإنّ القروض الاستهلاكية مرآة تعكس خياراتنا وأولوياتنا، فعندما تصبح الرغبات مقياساً للسعادة، والمظاهر بديلاً للقيم، تتحوّل الأسرة من بناء متماسك إلى كيان هش تتقاذفه رياح الديون، فاستقرار الأسرة لا يُقاس بما تملك، بل بما تستطيع الاستغناء عنه دون أن تفقد توازنها، إذ إنّ الحرية المالية الحقيقية ليست في القدرة على شراء كل شيء، بل في التحرر من الحاجة الملحة لامتلاك ما لا نحتاج.